الحرب العراقية الإيرانية وفلسطين والعروبة والاسلام

د. سيد نوفل

تحقيق

غدا تحتفل مصر بيومها الخالد على الزمان : ذكرى حرب أكتوبر المجيدة أو العبور العظيم . . ومنذ أيام قلائل ، وحسب التقويم العبرى ، استخلصت إسرائيل عبرة ما أسمته التقصير فى هذه الحرب . وتحدث رئيس أركان القوات المسلحة الإسرائيلية : الجنرال رفائيل إيتان . فتورط فى السياسة تورطا أنكره حزب العمل الإسرائيلى المعارض ، ونبه إلى ضرورة المباعدة بين المواقف الحزبية وبين الجيش ورئيس أركانه ، وأنه ليس من حق رئيس الأركان أن يؤيد سياسة حكومة بيجين فى الاحتلال والاستيطان للضفة الغربية وغزة ، أو يهودا والسامرة كما يحلو للتطرف الإسرائيلى أن يعيش فى الماضى السحيق . . . واستوقف النظر فى حديث رئيس الأركان الإسرائيلى ماأبداه من قلق لالتزام مصر الدفاعى نحو شقيقاتها العربيات ، وتوجسه خيفة من هذا الالتزام . وتعبيره إلطريف عن هذا التوجس .

فقد قال إنه ينام بعين واحدة حين ينام ، ولايغمض عينيه معا . . فهو يقظان نائم ، كما يقول شاعرنا العربى القصيح :

بنام بإحدى مقلتيه ويتقى
بأخرى المنايا فهو يقظان نائم ! !

وفى اليوم التاسع للحرب العراقية الإيرانية ، تحدث وزير الدفاع المصرى : الفريق أحمد بدوى فقال إن مصر سوف تدافع عن أية دولة عربية تتعرض للعدوان . وهى لذلك تتابع فى يقظة مواقف القوى الأجنبية وأنشطتها التى تهدد أشقاءنا ، وسوف تقدم التسهيلات العسكرية للولايات المتحدة الأمريكية دفاعا عن هؤلاء الأشقاء . .

وما قاله رئيس الأركان المصرى منذ أربعة أيام إنما هو تأكيد لما أعلنه الرئيس السادات منذ تراكمت المخاطر على الشرق الأوسط عامة ، وعلى إيران وأفغانستان ومنطقة الخليج العربية خاصة . . ولم تنته عن هذا الالتزام حرب العداء التى شنها الاتحاد السوفيتى على مصر طمعا فى تحقيق أهدافه ، ولا الأدوات العربية التى سخرت لخدمة هذه المطامع . . وبلغت مسيرتها قمة العداء والتحدى لروابط القومية وللشرعية الدولية فى اجتماع طرابلس بليبيا فى بداية ديسمبر ١٩٧٧ . . واستخدمت قضية فلسطين المفترى عليها ستارا لأهدافها الخافية للمصالح الفلسطينية والعربية والإسلامية جميعا . .

وفى اليوم التاسع للحرب العراقية الايرانية ذاته ، برز أعران جديران بالعناية العربية . فقد أكدا الدور القيادى المصرى فى المبادرة إلى مواجهة احتمالات المخاطر والتصدى لها . ودعوة الأشقاء العرب والإخوة المسلمين إلى التضامن الصادق المستنير فى دفعها . .

والأول هو ما أذيع عن أن وفد الحزب البعثى الحاكم فى سورية بزعامة حافظ الأسد ، بحضر مؤتمر الشعب العام فى الجماهيرية الليبية بزعامة العقيد معمر القذافى . وقالت وكالة أنباء الحكومة السورية البعثية : « إن مؤتمر الشعب العام سيعلن فى دورة انعقاده موافقته على الصيغ التفصيلية للوحدة الاندماجية بين ليبيا وسورية . وتذكر أن المؤتمر بدأ الانعقاد فى ٢٨ أيلول (سبتمبر) فى ذكرى انفصال سورية عن مصر ووفاة الرئيس جمال عبد الناصر . . »

وكأنما كتب علينا نحن العرب الابتلاء بعملاء من بيننا يرقصون وسط النيران المشتعلة فى بلادهم ويستهترون بكل عقل وفهم . . فماهى الصلة بين الانفصال والوحدة ؟ ! وكيف يحتفل السوريون البعثيون بذكرى وفاة عبد الناصر وهم الذين اعلنوا عليه الحرب الشعواء ، ورموه بما يرمى به اليهود هتلر من الوان الإبادة والتعذيب والبطش بمعارضيه ، وسجلته صفحات الاجتماعات العربية السوداء فى « شتورة » بلبنان فى أغسطس (آب) ١٩٦٢ ؟ ! □ □ ويكمل هذا النبأ ويوضحه ما أذيع فى موسكو من بيان مشترك صدر عقب المحادثات التى أجراها وفد مؤتمر الشعب العربى والحكومة السوفيتية . وهى محادثات لم يسبق لها مثيل بين حكومة ووفد عربى يضم تنظيمات وأحزابا يسارية عربية كما تقول وكالة الأنباء الفرنسية والليبية معا . . .

وقد ختم البيان القريد بأن « الجانبين قدرا تقديرا عاليا دور الجبهة القومية للصمود والتصدى فى المنطقة العربية . وأشار الجانبان إلى أهمية ترسيخ وحدة القوى العربية القومية والتقدمية المعادية للإمبريالية على أساس النضال ضد الإمبريالية والصهيونية والرجعية . . »

وإذن فحرب القذافى والاسد وعلى ناصر ، بزعامة الاتحاد السوفيتى موجهة إلى أمريكا وإسرائيل وإلى الدول العربية التى تسميها معتدلة ويسمونها رجعية . . وهى الدول ذاتها التى استغلها الرافضون والمنتفعون ، ولم يبق من شبهة فى وجوب تحررها الفورى من هذا الاستغلال . .

والأمر الآخر الذى وقع فى اليوم التاسع من الحرب الايرانية العراقية ، هو التعاون الدفاعى الأمريكى السعودى بناء على طلب المملكة العربية السعودية . فقد أعلن فى الولايات المتحدة الأمريكية أنها قررت تزويد المملكة ، بناء على طلبها ، بطائرات متقدمة للمراقبة والإنذار ، تدار بأجهزة وأطقم أمريكية ، وتتبين الخطر الوافد على بعد ٣٠٠ كم من جميع الجهات قبل قدومه . .

وهنا يبدو مرة أخرى صواب التنبيهات المصرية المتكررة ، والاستعداد لمواجهة الخطر بوسائل رادعة . وحتمية التعاون العربى الذى يعتبر القوة الأساسية فى هذا المجال ، ووجوب التعاون الدولى فى عصر الاعتماد المتبادل بين الدول . . وهنا تتأكد أيضا حكمة السياسة المصرية ودورها المتقدم الرائد ، حين نبهت وألحت على دعوة السلام العادل الشامل ودعت جميع الأطراف المعنية إلى التضامن معها فى مسيرته ، قاعدة لأمن المنطقة وكفالة للمصالح المشتركة ، وصدا للمخاطر المتصاعدة . .

والحق أنه لامناص من الاعتراف بأن التجارة الرائفة الداخلية والخارجية قد منيت بها القضيتان اللتان تسميهما قضية المصير العربى ، وتكتلت ضدهما قوى مختلطة من أهلها الفلسطينيين وأصحابها العرب وأنصارها المسلمين وأعدائها فى الشرق والغرب . . وحاربوهما تحت شعار الدفاع عنها . .

□ □ ومنذ أسبوعين ضحكنا ألما وضحك العالم إشفاقا أو شماتة من الوحدة السورية الليبية : العربية امحا السوفيتية معنى . وأضعنا نحن العرب أوقاتنا فى التأييد لها أو الهجوم عليها . . مع اتفاقنا الإجماعى على خزيها وهوانها ، وكان المتعين أن نمر بلغوها مر الكرام . .

وفى أعقابها نشبت الحرب العراقية الإيرانية ، بعد اشتباكات وصراعات اتصلت نحو عام ، ونجمت منذ ابتليت إيران والعالمان العربى والإسلامى بثورة الخمينى . . تلك الثورة التى انضمت إلى معسكر الرافضين العرب ، وحاولت ستر اهدافها ومطامعها برفع شعار التأييد المطلق لقضية فلسطين التى أصبحت – كما ضللوا – قضية المصير الفارسى والعربى معا . .

ومن المؤسف أن موقف العراق الرسمى من قضية فلسطين واستغلالها الزائف لم يتبدل فى جوهره منذ البداية . . وان تبدلت فى شعاراته . . فلقد كان الحكم العراقى فى عهد ثورى السعيد يتناول قضية فلسطين فى ترف ويأوى الخونة فى محيطها اللجب رغم الحماسة الشعبية العراقية . . ومن أجل ذلك دخل حرب فلسطين

الفريق أحمد بدوى : مصر سوف تدافع عن أية دولة عربية تتعرض للعدوان .

حافظ الأسد وعملاء يرقصون وسط النيران .

كانت العراق لعهد صدام حسين واحمد حسن البكر تعتزل مجال العمل فى النزاع العربى الاسرائيلى بحجة المعارضة لجهود السلام المصرية .

كان عبد الكريم قاسم فى ١٩٦١ يهدد الكويت ويعتزل العرب .

عام ١٩٤٨ دخولا رمزيا تابعا للجيش الأردنى ليشيبا من بعد فى الهزيمة العربية .

وعارض معاهدة الدفاع العربى المشترك منذ عام ١٩٥٠ إلى أن انضم إلى حلف بغداد عام ١٩٥٥ ، ولم تجد الوساطة والشفاعة من ثورة ١٩٥٢ المصرية العربية فى بداية عهدها . . ولم تجد رحلات المرحوم صلاح سالم إلى « سرهنك » العراقية لإثناء الحكومة العراقية عن عزمها الانضمام إلى الاحلاف العسكرية الأجنبية والتخلى عن الحلف العربى . . ولم تعلن مصر الحرب على حكومة العراق لمخافة الشرعية العربية ، ولم تفرض عليها مقاطعة رغم الإجماع العربى على تأييد الموقف المصرى . . إنما رعت للأخوة حقوقها وعملت فى حكمة ومثابرة من اجل المصالح العليا المشتركة إلى أن سقط حلف بغداد بثورة تموز (يوليو) لعام ١٩٥٨ . . ومنذ الثورة ظل العراق الرسمى يعيث بقضية فلسطين . ويتخذها ستارا لأهداف ومطامع خاصة . .

وكانت الحكومة العراقية ، كما أشرنا ، تنهج نهج المصالحة والتعاون العسكرى والاقتصادى مع جاراتها غير العربيات . . فلما جاءت الثورة لجأت إلى أسلوب التحدى والخلاف ، وكان ذلك احياء للخلافات الإيرانية العراقية خاصة ، وللخلافات الإسلامية العربية عامة . . ومن أجلها أيدت إيران وتركيا إسرائيل ضد العرب ، وأقامتا العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية وبعض العسكرية معها .

□ □ وفى هذا الجو أيدت ايران وإسرائيل أكراد العراق ، وشجعتهم على المطالبة بالاستقلال أو الحكم الذاتى . وتناست إيران فى هذه الإثارة ماقد تؤدى إليه من تحقيق الأمانى الكردية . . وهى تستهدف إقامة دولة تضم الأفراد المتجمعين فى إقليمهم الجبلى ، الممتد فى الاتحاد السوفيتى وإيران وتركيا والعراق . . وهو اقليم واسع تبلغ مساحته ١٩١,٦٦٠ كم٢ . ونصت معاهدة سيفر لعام ١٩٢١ على إقامة دولة كردية فيه ، وإن لم ير هذا القرار النور بسبب الأوضاع الإقليمية والدولية ، ورغم الثورات الكردية المتلاحقة منذ عام ١٩٢٥ .

وكان عبد الكريم قاسم فى عام ١٩٦١ يهدد الكويت ، ويعتزل العرب ، ويقيم حبيسا فى دار وزارة الدفاع ببغداد ، ويخشى ليل نهار الثورة العراقية عليه . . ومع ذلك كان يحفظ فى خزانة بمكتبة الأوسمة والياشين ومظاهر الاحتفال بتحرير فلسطين الذى يعد ليومه المشهود إعداد وهيأ

وكانت العراق لعهد أحمد حسين البكر وصدام حسين تعتزل مجال العمل فى النزاع العربى الإسرائيلى منذ نكبة ١٩٦٧ بحجة المعارضة لجهود السلام العادل المصرية ولقرار مجلس الأمن المعبر عنها رقم ٢٤٢ . . ولكن النزاع العراق الإيرانى ، وقوة إيران العسكرية لعهد الشاه دفعا الرئيس العراقى إلى حضور قمة الرباط العربية فى أكتوبر ١٩٧٤ . . . وأعلن التخلى عن تطرفه ، والمساهمة بمبلغ مائة مليون دولار لدعم دول المواجهة العربية : مصر وسورية والأردن ، ومنظمة التحرير الفلسطينية : ثم فاجأ رؤساء الدول العربية بطلب الوساطة بينه وبين شاه ايران . . وبذل الرئيس السادات والملكان فيصل بن عبد العزيز والحسن الثانى جهودهم . . وانتهت بتوقيع ميثاق العراق الإيرانى بالجزائر ، بعد جهود إضافية من الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين ، اثناء اجتماع القمة البترولية فى ٦ مارس ١٩٧٥ . . وهو الاتفاق الذى أعلنت الحكومة العراقية إلغاءه قبل نشوب الحرب الحالية . . ومع ذلك لم تؤد الحكومة العراقية المساعدة التى وعدت بها فى قمة الرباط لمآرب أخرى أبعد ماتكون عن قضية فلسطين .

وكانت الحكومة العراقية تعتزل حركة الرافضين العرب التى مثلت عاما كاملا معقلة على ليبيا وسورية والجزائر واليمن الديموقراطية . . ومن أجل النزاع العراق الإيرانى وخشية التهديد الشيعى من ايران للعراق ، انضمت إلى حركة الرفض العربية ، وورطت الدول العربية فيها بحجة المقاومة لتهديدات الخمينى ، كما أغرت المتشعين طلاب المال بالانضمام إليها . . والتزمت لأول مرة بمبلغ ٥٣٠ مليون دولار تؤديها ولاتتخلف عن أدائها وذلك رغم النزاعات المتجددة بينها وبين الرافضين الأولين فى اعقاب قمة بغداد فى نوفمبر ١٩٧٨ . .

□ □ واليوم والحرب دائرة الرحى بين العراق وايران ، والتحليلات تترى والأخطار تزداد ظلمة وكثافة — يحق لنا الإشارة الوجيزة إلى ما يأتى :

١ — إن كل عربى يؤيد تحرير الأراضى العراقية المحتلة فى رأى العراق منذ عام ١٩٧٥ . كما يؤيد تحرير الجزر العربية الاستراتيجية فى مدخل مضيق هرمز . وهى أبو موسى وطنب الكبرى والصغرى التى احتلتها حكومة ايران فى عام ١٩٧١ ، وزادت حكومة الخمينى تشبثا بها ومدت تهديداتها ومداخلاتها إلى منطقة الخليج وشبه الجزيرة العربية . . لكن اختيار الوقت الملائم ، والتقدير للأخطار الدولية وقضية فلسطين ومصالح الأمن العربى المشترك — كل ذلك كان يقتضى بعض التريث ، وتلاقى الكوارث التى نزلت وتنزل بالعراق وايران معا ، وتنذر المنطقة العربية كلها .

٢ — إن هذه الحرب قد اضرت بقضية فلسطين ، وأتاحت لإسرائيل أن تكرر من جديد انقطاع الصلة بين قضية الطاقة الدولية وقضية النزاع العربى الإسرائيلى . . لمخاطر الطاقة — كما تزعم — تكمن فى النزاعات بين الدول العربية ، وفيما بينها وبين الدول الاسلامية . . وهى النزاعات التى تمكن للاتحاد السوفيتى من تنفيذ مخططه فى أفغانستان وايران ومنطقة الخليج والقرن الأفريقى ومابعده .

٣ — إن هذه الحرب قد كرست التمزق العربى الذى بدأته ليبيا وسورية فى خريف عام ١٩٧٧ ، وتبنته العراق ووسعته فى خريف ١٩٧٨ وقد أصبح العالم العربى ابتداء من مصر حتى جيبوتى يقف على وجه العموم فى صف الدعوة إلى وقف القتال وتسوية النزاع بالوسائل السلمية . . ولايشذ عنه فى ذلك وفى تأييد إيران ضد العراق عسكريا أو سياسيا سوى سورية وليبيا والجزائر . . ولم يعد من مجال لعزل نصف الأمة العربية المقسم فى عشرين دولة عن نصفها الآخر المتجمع فى مصر العربية وخاصة بعد أن دعمت مصر دورها الوطنى والفلسطينى والعربى والإسلامى والدولى ، وأصبحت بحق جزيرة الحرية والديموقراطية والأمن فى الشرق الأوسط المشتعل . .

٤ — أن الحديث عن زعامة العراق للمنطقة الخليجية حديث خرافة . . فقد دمرت الحرب إيران والعراق معا . . وخربت مؤسساتها البترولية التى صرفت عليها عشرات البلايين ، وكان لعاب الدول المتقدمة — بل النامية — يسيل على مثلها . . وستحتاجان إلى سنوات طويلة للنقاهة من المرض العضال إن كتب لها الشفاء منه وحديث الزعامة العراقية يجافى الحقائق التاريخية والجغرافية والسياسية جميعا . .

٥ — إن هذه الحرب قد أعادت العرب والمسلمين الى الجاهلية الأولى وإلى حديث المجوس والفرس . . كما ذكرت العالم بأيام البرامكة والرشيد التى قدمت لانهيار دولة الخلافة الاسلامية وتمزق العالم العربى والإسلامى . . وكذلك أظهرت عجز الجامعة نصف العربية فى تونس والمؤتمر الاسلامى فى مكة وحركة عدم الانحياز فى هافانا والأمم المتحدة جميعا . ومهدت للتدخل الأجنبى فى المنطقة ، واتساع الصراع الدولى فيها . .

● ● ●

ومع ذلك كله فليس من المستبعد أن تستعيد جمهرة الدول العربية قوتها التى نهيأت لها فى حرب أكتوبر المجيدة .

وكثيرا ما أسفرت الحروب وهزائمها وخسائرها عن إنجازات وطنية ولولا حروب نابليون وهزيمة ووترلو عام ١٨١٥ ماكان استقرار الثورة الفرنسية فى أعقابها بعد الثورات المضادة المتلاحقة عليها . . ولولا هزيمة الروس فى الحرب العالمية الأولى ماكان تجمعهم عام ١٩١٧ . . ولولا هزيمة مصر فى عام ١٩٦٧ ماكان عبورها العظيم بوطنها وأمتها فى عام ١٩٧٣ . . . □